6 لماذا زار السادات القدس وليس تل أبيب؟

فى الأسبوع الثالث من نوفمبر ١٩٧٧ قام الرئيس السادات بزيارة لإسرائيل واختار القدس بالذات وليس تل أبيب. ولما كانت هذه الزيارة هى مفتاح خريطة الأحداث السياسية فى المنطقة طوال العقود التالية، فقد أصبح لازما التدقيق فى الفجوات التى قفزت فوقها الأحداث الكبرى. فقد أعقب الزيارة مسار طويل اختلف الباحثون فى النظر إليه مثلما اختلفوا فى كل ما يتعلق بهذه الزيارة. وفيما عدا الفريق الذى رأى السادات ذا نظرة استراتيجية ووطنية وأنه وفر على مصر عقوداً من الصراع مع إسرائيل واختصر المسافة معها فاستحق أن يكون ابن مصر البار، فإن الفريق الآخر يرى العكس تماماً، بل ذهب إلى أن سلوك السادات كان جزءاً من منظومة فكرية واتجاه قوى انجر إليه السادات ولقى عنده هوى شخصياً وسياسياً، وأن الزيارة لم تكن مفاجئة كما أوحى السادات، وإنما كان يراد للسادات بوصفه رئيس أكبردولة عربية، والعقبة الكبرى فى طريق المشروع الصهيونى، أن يقوم بدور مزدوج وهو أن ينزع العقبة، وأن يسعى إلى تمكين إسرائيل من التغلغل فى الجسد العربى.

لكل من الفريقين شواهد وأتباع وحجج، ولكن كلامنهما يقدم تقييمه للسادات وسلوكه من منظورين مختلفين كل منهما يدعى أنه المنظور الاستراتيجى. ولكن الحقيقة أن السادات مهما بدا ممثلاً فى معظم أدواره وخلط الجد بالهزل فى معظم

الأحيان، فإن حقيقته لم تعرف حتى لأقرب الباحثين منه، رغم أن هذه نقطة بالغة الأهمية فى استيفاء صفحة هامة فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى. وعلى أية حال، فإنه يبدو لنا أنه أيا كان السادات وطريقة تفكيره، فإن السادات أعان المشروع الصهيونى بقصد أو بغير قصد، وأنه حتى لو كان قد شهد كل هذه المخاطر على مصر والمنطقة فربما كان قد أعاد النظر فى هذه المسيرة لو أمهله القدر، ورأى تداعيات السلام المصرى الإسرائيلى. صحيح أن الفريق الأول يرى أن السادات لم يقصد صلحاً منفردا ليستحق اللوم عليه وأنه لم يكن أنانياً فى مصريته، بل حاول أن تكون مصر قاطرة السلام العربى مع إسرائيل، ولازال هذا الفريق يردد أن السادات أتاح السلام الشامل للفلسطينيين، ولكن قادتهم الذين امتهنوا المقاومة فوتوا هذه الفرصة. ويستطيع هذا الفريق أن يستدل بالمآسى التى تشهدها القيادات الفلسطينية خاصة فى إطار السلطة الوطنية لتأكيد هذه الملاحظة، وهى أن الفلسطينيين ليسوا الأكثر حرصاً على مصالحهم، وأن نسبة الجواسيس العاملين لصالح إسرائيل ضد أنفسهم وشعبهم خاصة خلال الاعتداءات الإسرائيلية فى غزة تقطع بخيبة الأمل فى وطنيتهم.

ولا أزال ممن يرون أن الدراسة المتأنية الموضوعية التى تنحاز إلى الرؤية الاستراتيجية حتى المصرية الخالصة تقطع بأن السلام مع إسرائيل على النحو الذى انتهى إليه، وبصرف النظر عن قصد صانعيه صار كارثة على مصر الوطن وليس فقط مصر الدور، وأنه صار لزاماً على العقلاء فى العالم العربى مساندة عملية استعادة مصر لنفسها بعد استلابها طَيلة هذه العقود، إذا أريد للعالم العربى أن يعيد تماسكه فى مواجهة مشروع صهيونى ذى مخطط استراتيجى يستهدف مصر القلب فى البداية والنهاية.

ولكن هذه الملحمة تحتاج كما قلت إلى مراجعة بالتصوير البطيء فى ضوء تحليل نوايا السادات وطريقة تفكيره، لماذا زار السادات القدس ولم يقم بزيارة تل أبيب؟،

وهل اختار السادات أم أن إسرائيل اشترطت عليه أن يزور القدس؟، وإذا كان هدفه كما قال هو القفز فوق المسائل الإجرائية والنفسية ومواجهة القضية الأساسية، وهى شروط السلام العادل. فهل كان السادات يعتبر زيارة الحكومة الإسرائيلية فى القدس مسألة تافهة لا تستحق التوقف عندها؟ وهل كان السادات يدرك حقاً طريقة التفكير الإسرائيلية وخطة المشروع الصهيونى، أم أن تكوينه لم يسمح له بمعرفة هذه القضايا، وإذا قيل أن السادات بدأ حياته عسكرياً ثم أصبح سياسياً مرموقاً منذ قيام ثورة يوليو، وأنه رغم ذلك لم يقرأ ويستوعب ما أفصح عنه قادة إسرائيل أنفسهم حول المشروع الصهيونى الذى لا يمكن أن يكون مفاجأة لأحد، ألم يدرك السادات أن جميع قادة إسرائيل خاصة من الآباء المؤسسين هم زعماء العصابات الذين انخرطوا فى المشروع مهاجرين أو أبناء مهاجرين وتدربوا لنهب الأرض من سكانها بالقوة، وأن إسرائيل لهذا السبب جيش تسربل برداء الدولة، بكل ما يعنيه ذلك من تداعيات فى القرار والسلوك الذى تفرضه أوضاع القوة بحسبانها أهم مقومات وأدوات المشروع الصهيونى، فأصبح العسكرى الإسرائيلى مختلفاً فى مدركاته بالطبع عن الثقافة السياسية للعسكريين المصريين بالنسبة لأوضاع الصراع العربى الإسرائيلى.

بعبارة أوضح هل يدرك السادات أن القدس يتم تهويدها منذ ١٩٤٨ بشكل منهجى؟ وأن إسرائيل تدعى أنها عاصمتها الأبدية على الأقل منذ بداية الخمسينيات، وبشكل أخص منذ احتلال الشطر الشرقى منها فى السابع من يونيو ١٩٦٧، ثم ألم يدرك أن زيارة الحكومة الإسرائيلية فى القدس رغم إصرار قرار مجلس الأمن ٢٤٢ على أنها جزء من الضفة الغربية المحتلة يعد اعترافًا منه بأنها عاصمة إسرائيل، وأنه يعمل ضد الشرعية الدولية فى هذه القضية، إذا أخذنا بنظرية أن السادات كان محبذا لإخراج مصر من ساحة الصراع مع إسرائيل، وفتح الطريق

لانطلاق هذا المشروع إلى غايته، فمن السهل القول أنه كان يدرك ذلك كله وأنه تعمد هذه النتيجة وأن يكون عنوان الزيارة تاريخياً زيارة القدس، وأن تحفظه حول مزاعم إسرائيل فى خطابه فى الكنيست كان على سبيل التمويه وإبراء الذمة التاريخية الشكلية. أما إذا سلمنا مع الفريق الآخر بأن السادات كان يستخف بأمور بالغة الجدية بسبب نقص تكوينه الثقافى والفكرى وإدراكه لخطورتها، فإن التفسير الأقرب هو أن السادات لم يدرك هذا كله الإدراك الكافى أو أنه ربما أدركه ولم يرتب عليه النتائج التى يستوجبها هذا الإدراك. ونحن نميل إلى هذا التفسير، والدليل على ذلك أن مصر خلال مفاوضات واشنطن لإبرام معاهدة السلام عام ١٩٧٩ وحتى خلال محادثات كامب دافيد ١٩٧٨ سجلت موقفها كتابة من قضية القدس، بل إن السادات شعر فى أغسطس ١٩٨٠ أن صدور قانون الكنيست بضم القدس لإسرائيل واعتبارها عاصمة أبدية لها عمل قصد إحراجه عقب توقيع اتفاقية السلام لإثبات أن الاتفاقية أطلقت يد إسرائيل وأخرجت مصر حتى من المعادلة الدبلوماسية فى القضية، وأن هذا العمل إهانة له من جانب مناحم بيجن على النحو الذى أشير إليه فى مذكرات أمريكية وإسرائيلية. ولذلك سعى السادات مع كارتر إلى صدور قرار مجلس الأمن الشهير رقم ٤٧٨ الذى أدان القانون الإسرائيلى واعتبره باطلاً ولاغياً وحث الدول على ألا تنقل سفاراتها من تل أبيب إلى القدس.

على أية حال لم يؤثر قرار مجلس الأمن فى مسيرة إسرائيل نحو تهويد القدس وكان قانون الكنيست إحدى المحطات فى الطريق القانونى، ولاشك فى أن علاقة مصر بإسرائيل منذ ١٩٧٧ أثمرت عام ١٩٩٥ فى أول قانون أمريكى يطابق تماما موقف إسرائيل حتى صدر القانون الأشمل عام ٢٠٠٢ من الكونجرس وصدق عليه الرئيس، ولذلك لايمكن فصل اشتداد عملية التهويد الآن فى ظل نتانياهو عن الإرهاصات الأولى يوم زار السادات القدس.